الفصل الرابع

تعريف موجز بالأصوات الصامتة

قمنا فيما سبق بتصنيف الأصوات الصامتة فى اللغة العربية إلى ثلاث مجموعات رئيسية. وقد كان هذا التصنيف مبنيًّا على ثلاثة أسس هى :

١ ــ وضع الأوتار الصوتية .

٢ ــ مواضع النطق .

٣ ــ حالة ممر الهواء أثناء النطق .

ويجدر بنا الآن أن نقدم تعريفات مختصرة لهذه الأصوات . مع جعل الأساس الثالث للتقسيم السابق محوراً للدراسة وترتيب المناقشة. كما سيتضح لنا ذلك فى هذا الفصل والفصل الذى يليه .

الأصوات الانفجارية

تتكون الأصوات الانفجارية ــ بقطع النظر عن اللغة المعينة ــ بأن يحبس مجرى الهواء الخارج من الرئتين حبسًا تامًّا فى موضع من المواضع . وينتج عن هذا الحبس أو الوقف أن يضغط الهواء ثم يطلق سراح المجرى الهوائى فجأة . فيندفع الهواء محدثًا صوتًا انفجاريًّا . فهذه الأصوات باعتبار الحبس أو الوقف يمكن تسميتها « بالوقفات » stops ولكنها باعتبار الانفجار تسمى الأصوات الانفجارية plosives والأول هو ما جرى عليه الأمريكان . أما الثانى فهو وجهة نظر الإنجليز .

والمواضع التى يقف فيها مجرى الهواء وقفًا تامًّا عند إحداث الأصوات الانفجارية فى اللغة العربية الفصحى . كما ينطقها مجيدو القراءات . هى :

١ ــ الشفتان . وذلك بأن تنطبقا انطباقًا تامًّا كما فى حالة الباء .

٢ ــ أصول الثنايا العليا ومقدمة اللثة ،وذلك بأن يلتقى بها طرف اللسان وذلك فى حالة التاء والدال والضاد والطاء .

٣ ــ أقصى الحنك الأعلى . بأن يلتقى به أقصى اللسان ، كما فى حالة الكاف والجيم القاهرية كذلك) .

٤ ــ أدنى الحلق بما فى ذلك اللهاة ، بأن يلتقى به أقصى اللسان وذلك فى القاف .

٥ ــ الحنجرة وذلك فى همزة القطع .

وهاك وصفاً مختصراً لكل من هذه الأصوات :

الباء :

عند النطق بالباء يقف الهواء الصادر من الرئتين وقوفاً تاماً عند الشفتين : إذ تنطبق هاتان الشفتان انطباقاً كاملا . ويضغط الهواء مدة من الزمن ، ثم تنفرج الشفتان فيندفع الهواء فجأة من الفم ، محدثاً صوتاً انفجارياً . ويتذبذب الوتران الصوتيان أثناء النطق .

فالباء إذن صوت شفوى انفجارى مجهور .

وليس للباء نظير مهموس فى اللغة العربية . ومن هنا نلاحظ خطأ كثير من العرب فى نطق صوت [P] المهموس والموجود فى اللغة الإنجليزية مثلا . ولكن قد يحدث أن يهمس الباء العربى فى بعض مواقعه . كالباء فى نحو كتاب (بسكون الباء) . وفى هذه الحالة يصحب الإهماس عدم انفجار كامل ، ولعل هذا أحد الأسباب التى من أجلها نص العرب على وجوب تحريك الباء بصويت إذا كانت ساكنة . حتى يتحقق الانفجار والجهر التام .

التاء :

يقف الهواء وقوفاً تاماً حال النطق بالتاء عند نقطة التقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا ومقدم اللثة . ويضغط الهواء مدة من الزمن ، ثم ينفصل اللسان فجأة تاركاً نقطة الالتقاء فيحدث صوت انفجارى . ولا تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق بالتاء .

فالتاء إذن صوت أسنانى ــ لثوى انفجارى مهموس . وقد يصحب التاء شىء من الإجهار فى بعض السياقات ، كما إذا جاءت ساكنة متلوة بصوت مجهور . كما فى نحو انعت داود (تنطق انعد داود) .

كما يلاحظ أنها قد تصحب بنوع من الاحتكاك friction إذا وليها كسر ، ويظهر ذلك بخاصة فى نطق السيدات ، وهو نطق خطأ .

الدال :

وصوت الدال هو النظير المجهور للتاء وليس بينهما من فرق إلا أن الوترين الصوتيين يتذبذبان مع الدال أثناء النطق .

فالدال صوت أسنانى – لثوى انفجارى مجهور .

الطاء :

صوت الطاء هو النظير المفخَّم للتاء . فشكل اللسان مع الطاء يكون غير شكل اللسان مع التاء . فى حالة النطق بالطاء يرتفع مؤخر اللسان نحو الحنك الأقصى ويتأخر قليلا نحو الجدار الخلفى للحلق . ويرى البعض أنه فى حالة النطق بالطاء يكون اللسان مقعراً . أى يرتفع أقصاه وطرفه مع تقعير وسطه . وهذا هو المقصود بالإطباق عند علماء العربية القدماء . فالطاء صوت مطبق أو مفخم وليست كذلك التاء .

فالطاء إذن صوت أسنانى – لثوى انفجارى مهموس مفخم (أو مطبق) .

وقد وصفت الطاء فى التراث اللغوى القديم بأنها صوت مجهور ، وعدوها واحداً من أصوات « قطبجد » . وهى – فى نظرهم – أصوات شديدة (انفجارية) مجهورة[1] . وقد نص سيبويه نفسه على ذلك . وتابعه كل من جاء بعده من اللغويين والقراء ، كما يؤخذ هذا المعنى من قوله : « لولا الإطباق لصارت الطاء دالا والصاد سيناً والظاء ذالا ، ولخرجت الضاد من الكلام ، لأنه ليس من موضعها شيء غيرها » .

يفيد هذا النص أن الطاء هى النظير المطبق (المفخم) للدال . أو بعبارة أخرى . ليس هناك بين الصوتين فرق فى نظرهم إلا الإطباق فى الطاء وعدم هذا الإطباق فى الدال . فإذا زال هذا الإطباق أصبحت الطاء دالا . والدال كما هو معروف صوت مجهور . فالطاء – نظيرها المفخم – صوت مجهور كذلك .

وهناك ثلاثة احتمالات يمكن تقديمها لتفسير ماذهب إليه هؤلاء اللغويون من وصفهم للطاء بأنها صوت مجهور .

---

(١) انظر ص ١١٥ وما بعدها .

الاحتمال الأول :

ليس من البعيد أن يكون هؤلاء العرب قد أخطأوا التقدير فظنوا أن الطاء مجهورة . وقد يقبل هذا الاحتمال إذا علمنا أنهم لم يشيروا إلى العامل الأساسى فى حدوث ظاهرتى الجهر والهمس . ونعنى بهذا العامل وضع الأوتار الصوتية حال النطق بالأصوات . بل قل : إنهم لم يشيروا إطلاقًا إلى وظيفة هذه الأوتار فى عملية النطق .

الاحتمال الثانى :

لعل تطوراً حدث فى نطق ذلك الصوت الذى يرمز إليه كتابة بالحرف [ط] فلعلهم كانوا ينطقونه فى القديم بما يشبه نطق الضاد الحالية . والضاد الحالية — كما ستعرف — صوت مجهور ؛ وهى (لا الطاء) النظير المطبق أو المفخم للدال حسب نطقنا الحالى فى جمهورية مصر العربية .

ومعنى هذا الكلام فى الوقت نفسه أن ضادهم كانت تختلف عن ضادنا الحالية أى أنها صوت لا نظير له فى نطقنا الحالى . (انظر ١٠٤ وما بعدها) .

ويؤيد هذا الاحتمال الثانى بشقيه النص السابق لسيبويه والذى يقرر فيه صراحة أن الضاد لا يخرج « من موضعها شىء غيرها » . على حين أن ضادنا الحالية تخرج من منطقة التاء والطاء والدال .

فإذا كان هذا الاحتمال الثانى يمثل حقيقة تاريخية ساغ لهم ما يقولونه إذن من أن الطاء صوت مجهور ، أى أنه كان ينطق نطقنا للضاد الحالية ؛ إذ لا فرق فى نطقنا الآن بين الطاء والضاد إلا الهمس فى الطاء والجهر فى الضاد . فإذا نطقنا الطاء مجهورة كانت ضاداً وإذا عكسنا فنطقنا الضاد مهموسة كانت طاء .

الاحتمال الثالث :

لعلهم كانوا يصفون صوتًا يشبه صوت الطاء الذى نسمعه فى بعض لهجات الصعيد وفى نطق بعض السودانيين الآن . وهو صوت طاء مشربة بالتهميز glottalization ؛ أى أننا نشعر عند نطقها بوجود عنصر الهمز فيها[1] .

---

(١) قد لاحظ هذه الظاهرة من قبل الزميل الدكتور تمام حسان فى كتابه « مناهج البحث فى اللغة » ص ٩٤ .

ويتم نطق هذه الطاء بالطريقة التى تنطق بها طاؤنا الحالية بإضافة عنصر جديد ، هو إقفال الأوتار الصوتية حال النطق بها ، ومن ثم لا يمر الهواء خلال الحلق والفم ، وبالتالى يختلف ضغط الهواء فى هاتين المنطقتين وفى خارج جهاز النطق عنه خلف الأوتار الصوتية . وفجأة تنفصل الأعضاء المشتركة فى نطقها بعضها عن بعض فيخرج الهواء المضغوط خلف الأوتار بقوة ، ملتقياً مع الهواء المندفع من الخارج فى الفم فنسمع طاء مهموزة glottalized نتيجة إقفال الأوتار الصوتية حال النطق بها .

وهذا الصوت حينئذ من الصعب وصفه بالجهر أو الهمس . أما عدم الجهر فواضح لأن الجهر لا يحدث أبداً عند إقفال الأوتار الصوتية . وكذلك لا يحدث الهمس فى نظرنا إلا عند انفراج الوترين انفراجاً معيناً . فالهمس إذن ليس معناه عدم الجهر ، كما فهم بعض الدراسين ، ومن ثم عدوا هذه الطاء مهموسة [1] . كما فعلوا فى الهمزة ذاتها (انظر ص ١١٢) .

وإذا كان هذا هو ما كان يقع بالفعل فى نطق الأقدمين . فلعلهم لم يستطيعوا إدراك خواصها فظنوها مجهورة أو النظير المفخم للدال وهو صوت مجهور .

على أنا نسمع أحياناً من السودانيين من ينطقها كما لو كانت مجهورة ، كما وصفها الأقدمون . وهى حينئذ تشبه الضاد التى تنطق فى جمهوريتنا .

الضاد :

هى النظير المجهور للطاء ، فلا فرق بينهما إلا أن الطاء صوت مهموس والضاد صوت مجهور . كما أنه لا فرق بين الدال والضاد إلا أن الضاد مطبق (مفخم) والدال لا إطباق فيه .

فالضاد إذن صوت أسنانى – لثوى انفجارى مجهور مفخم (مطبق) .

وهذا الوصف الذى أوردناه للضاد يختلف عما ذكره علماء العربية لهذا الصوت فى نقطتين أساسيتين :

أولاهما : تتعلق بموضع النطق .

والثانية : خاصة بكيفية مرور الهواء عند النطق .

---

(١) الدكتور تمام حسان ، المرجع السابق ص ٩٤ .

أما فيما يتعلق بموضع النطق فقد نسبها سيبويه — وتبعه ابن جنى وغيره — إلى منطقة تلى منطقة الجيم والشين والياء[١] . وهذه الأصوات الثلاثة — كما قرروا هم — تخرج من وسط الحنك . وبضم هذه الحقيقة إلى ما ذكروه من وصف مخرج الضاد يمكن القول بأنها — على رأيهم — تخرج من منطقة قريبة من وسط الحنك . أو هى — بتعبير حديث — لثوية — حنكية . وهذا فى الحق يختلف عما نمارسه اليوم من نطق الضاد . إذ هى الآن تخرج من نقطة الدال والتاء والطاء . وهذه الأصوات الأربعة أسنانية — لثوية .

أما تفسير ما ذهب إليه هؤلاء العلماء فيمكن إرجاعه إلى واحد من احتمالين اثنين :

الأول :

يرى البعض أنه ليس من البعيد أن يكون لغويو العرب قد أخفقوا فى تحديد الموضع الدقيق لنطق الضاد . ولكن هذا الاحتمال بعيد فى رأينا ، إذ تناقضه الشواهد الكثيرة الواردة عنهم .

الثانى :

يبدو أن سيبويه وغيره من علماء العربية والقراء كانوا يتكلمون عن ضاد غير تلك الضاد التى نعرفها ونمارسها نطقًا اليوم فى جمهورية مصر العربية . وهناك من النصوص الواردة عنهم ما يؤيده هذا الاحتمال .

فهناك أولا ذلك النص المشهور الذى ساقه سيبويه متضمنًا الإشارة إلى موضع نطق هذا الصوت . يقول : « لولا الإطباق لصارت الطاء دالا ، والصاد سينًا ، والظاء ذالا ، ولخرجت الضاد من الكلام . لأنه ليس من موضعها شىء غيرها »[٢] .

وهكذا نرى أنه نسب الضاد إلى موضع لا يشترك معها فيه غيرها . على حين أن ضادنا الحالية تخرج من النقطة التى تخرج منها التاء والدال والطاء . ويؤيد هذا الاستنتاج كذلك ما أشار إليه فى النص نفسه من أن الطاء (لا الضاد) . هى النظير المفخم للدال ؛ على عكس الموجود فى نطقنا الحاضر . إذ فيه تقع الضاد موقع النظير المفخم لهذا الصوت .

---

(١) أما الخليل فقد نسبها إلى مخرج الجيم والشين ، لا إلى مخرج تال لمخرجهما وسمى الأصوات الثلاثة الأصوات الشجرية . والملاحظ أنه لم يذكر الياء فى هذه المجموعة . انظر كتاب العين جـ ١ ص ٦٥ .

(٢) الكتاب لسيبويه جـ ٣ ص ٤٠٦ .

ومما يرجح هذا الاحتمال كذلك وصفهم لكيفية نطقها وحالة ممر هوائها عند هذا النطق . يقول ابن جنى فى هذا الشأن : فإن « شئت تكلفها من الجانب الأيمن وإن شئت من الجانب الأيسر » . أو من كليهما[1] .

ومعنى هذا الكلام أن الهواء أثناء النطق بالضاد يخرج من أحد جانبى الفم أو منهما معًا . كما يحدث ذلك فى نطق اللام . فكأن الضاد — بهذا الاحتمال — صوت جانبى كاللام تمامًا .

وهذ النص الأخير يسلمنا إلى نقطة الخلاف الثانية بيننا وبين العرب القدامى فى وصف الضاد . وهذه النقطة تتمثل فى أن الضاد عندهم ليست شديدة أى ليست انفجارية وإنما هى رخوة أى احتكاكية بالتعبير الحديث . وهم — لهذا السبب — لم يذكروها ضمن أصوات « أجدت طبقك » . وهى الأصوات الشديدة فى نظرهم .

ومعنى هذا بنص كلامهم أن الضاد القديمة يمكن نسبتها إلى مجموعتين من الأصوات بحسب حالة ممر الهواء عند النطق بها .

فهى عندهم كاللام ، فهى جانبية لأن هواءها ينحرف إلى جانبى الفم . كما جاء الكلام السابق لابن جنى . وكما فى كلام بعضهم من أن الرواة كانوا يضربون مثلا « لبلاغة عمر أنه كان يستطيع أن يخرج الضاد من أى شدقيه شاء » .

وأصرح من هذا ما جاء فى هذا المقام عن باحث ذواقه ، هو الأستاذ حفنى ناصف . حيث يقول : « فالضاد واللام يتوزعان حافة اللسان » . وكما يؤكد هذا المعنى نفسه حين يقرر أن : « الضاد مستطيلة ومخرجها جانب اللسان لا طرفه »[2] .

وهذه الضاد كذلك يمكن نسبتها إلى الأصوات الاحتكاكية . وهذا ما تشير إليه نصوصهم المتناثرة هنا وهناك . حيث لم يذكرها فى الأصوات الشديدة ولا فى الأصوات المتوسطة ، بل إن سيبويه نفسه نص أن الضاد صوت رخو (احتكاكى) ، وهذه عبارته (الكتاب جـ ٢ ص ٤٠٦) : ومن الأصوات « الرخوة . وهى الهاء والحاء والغين والخاء والشين والصاد والضاد والزاى والسين والظاء والثاء والذال والفاء » . وهذا الكلام نفسه يفهم من عبارة

---

(١) ابن جنى : سر صناعة الإعراب ، جـ ١ ص ٥٢ .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقى ضيف ص ١٤ .

(٣) تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية لحفنى ناصف ص ١٧ و ٢٤ .

لابن جنى يتكلم فيها عن عدم إدغام الضاد فى الطاء ، فيقول :

« وأما الضاد فلأن فيها طولا وتفشيًا فلو أدغمت فى الطاء لذهب ما فيها من التفشى ، فلم يجز ذلك »[1] . فوصفها بالتفشى يعنى أنها رخوة أى احتكاكية ؛ إذ التفشى إنما يظهر مع هذه الأصوات . ونموذجها الأشهر هو الشين . وقد ورد مثل هذا المعنى على لسان حفنى ناصف فى وصفه للضاد فيقول : « وفى الضاد تفش قليل ولذا عدها بعضهم مع الشين »[2] .

ويبدو على كل حال أن الضاد القديمة فى نطقها كانت تجمع بين الظاهرتين ، ظاهرة خروج هوائها من جانبي الفم كاللام وظاهرة الاحتكاك .

وبتطبيق هاتين الظاهرتين مضمومتين إلى نقطة النطق نحس بصعوبة بالغة فى نطق هذه الضاد ؛ وقلما استطاع واحد منا أن يأتى بنطق مثالى يوائم ما قدمه لها العرب من خواص وسمات .

وليس أمامنا من توضيح لنطق هذا الصوت أكثر من القول : لعلها كانت تشبه ذلك الصوت الذى هو وسط بين الضاد والظاء فى بعض اللهجات فى البلاد العربية كالعراق والكويت . أو بعبارة أدق ، لعل ما ينطقه هؤلاء الناس فى هذه المناطق أثر من آثار الضاد القديمة ، أو هو تطور صوتى لها .

ومهما يكن من أمر فالمفهوم من جملة التراث اللغوى للعرب أن الضاد القديمة صوت احتكاكى جانبي . وأنه ليس له ما يناظره من الأصوات فى موضع النطق حتى إذا زال عنه الإطباق (التفخيم) لم يبق منه فى العربية شىء .

ولكن هناك مستشرقًا مشهوراً هو — يوهان فك — يأتى بكلام فى موضوع الضاد يفهم منه صراحة أن الضاد فى الأصل هى النظير المفخم للدال . أى أنها حينئذ كانت تشبه

---

(١) سر صناعة الإعراب لابن جنى ج ١ ص ٢٢٤ . ولابن جنى نص آخر فى المرجع المذكور (ص ٢٢٢) يتعلق بقضية إدغام الضاد فى الطاء (وفى غيرها) وفيه يقول : « واعلم أن الضاد واحدة من خمسة أحرف يدغم فيهن ما قاربهن ولا يدغمن هن فيما قاربهن . وهى الراء والشين والضاد والفاء واللام . ويجمعها فى اللفظ : ضم شفر . ومنهم من يخرج الضاد من هذه الخمسة ويقول : قد أدغموا الضاد فى الظاء فى بعض اللغات ، فقالوا فى اضطجع : اطجع . وهذه لغة شاذة . ويجمع الأربعة الأحرف الباقية فيقول هى : مشفر ، والقول الأول هو الذى عليه العمل » . وهكذا نرى أن هذا النص لا يتعارض مع ما ذكرناه فوق ، وذلك لأن ابن جنى — كما صرح هو بذلك — لم يأخذ بهذا الرأى الشاذ فى موضوع الإدغام ، ولأن المسألة هنا ليست مسألة الإدغام وإنما هى مسألة التفشى التى تفيد صفة الاحتكاك فى الضاد وهذا هو المقصود فى هذا المقام .

(٢) حفنى ناصف : السابق ص ٢١ .

ضادنا الحالية أو هى هى ، غير أن هذا الصوت — فى نظره — قد تغير فيما بعد فى اللغة الدارجة أو المولدة بسبب اختلاط العرب بغيرهم منذ بداية الفتوح الإسلامية الأولى . وهذا هو هو النص .

و « يتعلق بهذا أيضاً (أى اكتساب اللغة المولدة بعض السمات الصوتية والصرفية والنحوية الجديدة) تغيير حرف الضاد . وهذا الصوت الذى هو فى أصله الحرف المطبق القسيم للدال خاص بالعربية بحيث يسمى العرب فى أحد الأحاديث المشهورة : الناطقين بالضاد » .

فإذا قبلنا هذا النص وعددناه صحيحاً كان هناك واحد من احتمالين لتفسير رأى علماء العربية فى الضاد التى لم يعدوها نظيراً مفخماً للدال ، والتى منحوها صفة الاحتكاك

الاحتمال الأول : أنهم أخطأوا فى وصفها ، ولم يوفوا فى تحديد صفاتها .

الاحتمال الثانى : أنهم وصفوا الضاد المولدة لا الضاد العربية الأصلية .

ويبدو لى حتى الآن أن الاحتمال الثانى هو الأرجح ، ربما لكثرة استعمال الصوت المولد وشيوعه على الألسنة عند قيام حركة التأليف اللغوى .

كما أن هذا المستشرق نفسه يروى عن بعض اللغويين العرب بأن الضاد العربية تنطق بست صور « فمن الناس من ينطقها كالدال ، وغيرهم كالظاء ، وآخرون يومئون إليها بالظاء ، كما أن « بعض الناس ينطقها دالا مفخمة وبعضهم ينطقها دالا عامية وأخيراً ينطقها بعضهم لاماً مفخمة »[1] .

الكاف :

يتكون هذا الصوت برفع أقصى اللسان تجاه أقصى الحنك الأعلى (أو الحنك اللين) والتصاقه به مع ارتفاع أقصى الحنك الأعلى نفسه ليسد مجرى الهواء من الأنف ثم يضغط الهواء لمدة من الزمن ثم يطلق سراح المجرى الهوائى فيحدث انفجار ولا يتذبذب الوتران الصوتيان حال النطق به .

فالكاف إذن صوت حنكى قصى انفجارى مهموس . والنظير المجهور للكاف هو الجيم القاهرية للغة العامية (انظر الكلام على الجيم ص ١٢٥) .

---

(١) العربية ليوهان فك ص ١٠٢ — ١٠٣ .

القاف :

يتم نطق هذا الصوت برفع أقصى اللسان حتى يلتقى بأدنى الحلق واللهاة مع عدم السماح للهواء بالمرور من الأنف . وبعد ضغط الهواء مدة من الزمن يطلق سراح مجرى الهواء بأن يخفض أقصى اللسان فجأة فيندفع الهواء محدثًا صوتًا انفجاريًا ولا يتذبذب الوتران الصوتيان عند النطق به .

فالقاف إذن صوت لهوى انفجارى مهموس .

ويتضح من هذا الوصف أن بيننا وبين علماء العربية نقطتى خلاف فى صوت القاف، النقطة الأولى منهما خاصة بموضع النطق والثانية بصفة الجهر والهمس .

أما من حيث موضع النطق فقد وصفها سيبويه — وتابعه فى ذلك ابن جنى وغيره — بأنها — « من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى »[1] وهم فى ترتيبهم للأصوات من حيث المخرج وضعوا القاف تالية للغين والخاء لا قبلهما وهذا هو الترتيب عند سيبويه (. . . والعين والحاء والغين والخاء والكاف والقاف)[2] . وقد جاء ترتيب الخليل وابن جنى موافقًا لما صنعه سيبويه هنا ، من جعل القاف فى موضع تال للغين والخاء .

وهذا الكلام نفسه ينطبق على وصف الخليل للقاف « بأنها لهوية » . فبالرغم من تصريحه بالوصف « لهوية » لا يمكن أخذ كلامه على أنه يقصد اللهاة بالمعنى المعروف لنا ، وإلا كان مخطئًا فى تقدير مواضع الغين والخاء والكاف كذلك . فالخليل — مثل سيبويه — وضع الغين والخاء قبل القاف لا بعدها — هكذا : (. . . غ خ ق ك) . فلو كان يقصد اللهاة بمعناها العلمى المعروف لنا الآن لوجب عليه أن يعكس هذا الترتيب ، إذ تخرج الغين والخاء من منطقة تلى اللهاة لا تسبقها[3] . أضف إلى هذا أن الخليل وصف الكاف كذلك بأنها لهوية ، حيث يقول : والقاف والكاف لهويتان»[4] . وليست الكاف لهوية بحال من الأحوال .

---

(١) الكتاب لسيبويه ، جـ ٢ ص ٤٠٥ .

(٢) السابق ص ٤٠٤ . وبالرغم من وضع الكاف قبل القاف فى هذا الترتيب فإن هذا لا يعنى أنها أسبق من القاف مخرجاً عند سيبويه، وإنما هما معًا أقرب أن يكونا من مخرج عام واحد ، أو أن الكاف بعد القاف إلى الأمام قليلا ، كما صرح بذلك هو نفسه عند الكلام على توزيع الأصوات على مخارجها (الكتاب جـ ٢ ص ٤٠٥) . وهذا ما سار عليه ابن جنى وغيره .

(٣) وصفهم للغين والخاء بأنهما من الحلق (وهو سابق للهاة) أمر غير دقيق ويحتاج إلى مناقشة ، انظر ص ١٢٣ وما بعدها .

(٤) كتاب العين للخليل جـ ١ ص ٦٥ .

فالأمر حينئذ بالنسبة للخليل لا يعدو واحداً من اثنين : إما أنه أخطأ فى تقدير موضع الغين والخاء والكاف وأصاب فى تقدير موضع القاف فوصفها بأنها لهوية أو أنه لم يفطن إلى موضع اللهاة فى الجهاز النطق ، فأخطأ فى تقدير موضع القاف .

وخلاصة القول فى مخرج القاف — كما يفهم من التراث القديم فى مجموعه — أنها تخرج من أقصى الحنك . أو هى حنكية — قصية بالتعبير الحديث . على حين أنها لهوية فى النطق المعاصر . كما يظهر ذلك فى نطق قراء القرآن الكريم فى جمهورية مصر العربية .

أما تفسير هذا الخلاف فى موضع النطق فرجعه إلى واحد من اثنين :

الأول: لعل علماء العربية أخطأوا فى تقدير الموضع الدقيق لنطق القاف وهذا احتمال يراه بعض الدارسين المحدثين .

الثانى : وهوما تشير الدلائل إلى رجحانه ؛ هو أن العرب ربما كانوا يتكلمون عن قاف تختلف عن قافنا الحاضرة . ليس من البعيد أنهم يقصدون بالقاف ذلك الصوت الذى تمكن تسميته « بالجاف » أو ما يشبه الكاف الفارسية . وهو ذلك الصوت الذى نسمعه فى بعض جهات الصعيد وريف الوجه البحرى . وهو شبيه بالجيم القاهرية أو هو هى من حيث الأثر السمعى (وإن اختلفا فى التوزيع الصوتى فى اللغة) .

ويؤيد هذا الاحتمال أمور . منها ما ذكرناه سابقاً من نسبتها إلى موضع للنطق مختلف عن مخرج القاف المعاصرة . ومنها وصفهم لها بأنها صوت مجهور ، ويؤكده ذكرهم لها ضمن أصوات « قطب جد » . وهى أصوات سموها أصوات القلقلة . وسماتها الأساسية — كما قالوا هم — كون هذه الأصوات شديدة (انفجارية) **مجهورة** .

ووصف القاف بالجهر يمثل نقطة الخلاف الثانية بيننا وبينهم فى وصف القاف العربية ، إذ القاف بنطقنا الحاضر صوت مهموس . كما سبق أن ذكرنا .

إذا صح هذا الاحتمال سلم للعرب ما رأوه من وضع القاف بعد الغين والخاء وسلم لهم كذلك القول بأنها مجهورة . ويكون الصوت الموصوف حينئذ هو صوت الجاف [G] ؛ إذ هو صوت من منطقة الغين والخاء أو هو من موضع تال لهما . وفى هذه الحالة كذلك يكون وضعه مع الكاف فى منطقة عامة واحدة عمل سليم ، إذا الجاف [G] نظير الكاف فى الموضع والانفجار وتختلف معها فى كونها مجهورة والكاف مهموسة .

والجاف نطقاً تشبه الجيم القاهرية فى نحو جمال . ولكنها تختلف معها فى الوظيفة والقيمة الصوتية فى تركيب اللغة . كما تختلف معها فى أن كلا منهما ينتمى إلى مستوى لغوى معين . فالجاف تنتمى إلى لهجات الصعيد ونحوها وجيم القاهرة تنتمى إلى لهجات المدن والحواضر .

ويكون وصف الجاف إذن : أنه صوت حنكى – قصى انفجارى مجهور . وهذا الوصف مستنتج – كما رأيت – من كلام العرب عن القاف العربية . وهو فى الوقت نفسه ينطبق تماماً على النطق السائد للقاف فى كثير من لهجات البلاد العربية الأخرى كالعراق والكويت والسودان إلخ .

وهناك نطق ثالث للقاف نسمعه فى لهجة القاهرة وغيرها من مدننا . فهى فى لهجات هذه البلاد تنطق همزة .

ومعنى هذا أن صوت القاف ينطق فى اللغة العربية ولهجاتها بثلاث صور :

١ – صوت لهوى انفجارى مهموس .

٢ – صوت حنكى – قصى انفجارى مجهور .

٣ – صوت حنجرى انفجارى (همزة) .

والصوت الأول هو الذى يجرى استعماله . فى العربية الفصحى المعاصرة كما ينطقها المتخصصون فى هذه اللغة وقراء القرآن الكريم . أما الصوت الثانى فهو السائد فى كثير من اللهجات العامية فى البلاد العربية . ووجوده بهذه الكثرة فى هذه اللهجات يوحى بأنه أثر باق لنطق قديم ، إذ انتشاره فى هذه البيئات المختلفة يضعف احتمال كونه ابتكاراً لغوياً محلياً . فمن المحتمل أنه كان يوجد فى القديم صورتان من النطق للقاف . الصورة الأولى هى القاف اللهوية المهموسة وهى التى ظلت مستمرة على ألسنة قراءة القرآن الكريم ، وقد أهمل علماء العربية وصفها أو أخفقوا فى وصفها . والصورة الثانية وهى القاف القصية المجهورة ، ولعلها كانت لهجة من اللهجات ، وهى التى ينطبق عليها الوصف الذى قدمه علماء العربية للقاف . أما القاف التى تنطق همزة ، كما فى لهجة القاهرة ، فهى على ما يبدو حتى الآن تطور محلى خاص .

الهمزة :

تسد الفتحة الموجودة بين الوترين الصوتيين حال النطق بهمزة القطع . وذلك بانطباق الوترين انطباقًا تامًّا . فلا يسمح للهواء بالمرور من الحنجرة . ثم ينفرج الوتران فيخرج الهواء فجأة محدثًا صوتًا انفجاريًا .

فالهمزة صوت حنجرى انفجارى لا هو بالمهموس ولا بالمجهور .

والقول بأن الهمزة صوت لا بالمهموس ولا بالمجهور هو الرأى الراجح إذ أن وضع الأوتار الصوتية حال النطق بها لا يسمح بالقول بوجود ما يسمى بالجهر أو ما يسمى بالهمس .

وهناك من الدارسين المحدثين من يرى أن الهمزة صوت مهموس[1] . ويبدو أنهم يقصدون بالهمس حينئذ عدم الجهر . وهو رأى غير دقيق ، إذ هناك حالة ثالثة هى حالة وضع الأوتار عند نطق الهمزة العربية . ولنا أن نقول فى تفسير رأيهم هذا ، إنهم لاحظوا المرحلة الثانية من نطق الهمزة وهى المرحلة التى تصاحب الانفجار . فى هذه الحالة تكون الأوتار فى وضع الهمس . ولكن هذا السلوك منهم غير دقيق بالنسبة لطبيعة الهمزة ، إذ الهمزة العربية لا يتم نطقها بهذه المرحلة الثانية وحدها ، وإنما تتكون وتتم بمرحلتين : المرحلة الأولى مرحلة انطباق الوترين . وفيها ينضغط الهواء من خلفهما فينقطع النفس ، والمرحلة الثانية مرحلة خروج الهواء المضغوط فجأة محدثًا انفجاراً مسموعًا . وهاتان المرحلتان متكاملتان ولا يمكن الفصل بينهما أو النظر إلى إحداهما دون الأخرى . ولنا أن نقول — على عكس ما يفترضون — إن المرحلة الأولى وهى مرحلة قطع النفس أهم فى تكوين الهمزة من المرحلة الثانية . ومن ثم كانت تسميتها همزة قطع ، وفى هذه المرحلة الأولى تكون الأوتار فى وضع غير وضع الجهر والهمس معًا .

أما آراء علماء العربية القدامى فى وصف الهمزة فهى آراء كلها اضطراب وخلط . ومن جملة كلام هؤلاء العلماء يظهر الفرق بيننا وبينهم فى وصف الهمزة فى نقطتين اثنتين :

الأولى : تتعلق بموضع النطق والثانية خاصة ببعض صفات الهمزة .

---

(١) من هؤلاء هيفنر الأمريكى فى كتابه General Phonetics والدكتوران عبد الرحمن أيوب وتمام حسان فى كتابيهما : أصوات اللغة ، ومناهج البحث فى اللغة ، بهذا الترتيب .

أما بالنسبة لقضية المخرج . فهناك من التراث العربى رأيان مشهوران . الأول منهما هو رأى الخليل ومن لف لفه . فهؤلاء يرون أن الهمزة هوائية أو أنها من الجوف على حد تعبير بعضهم . ولم يقتصر هؤلاء — ومنهم الخليل — على هذا الوصف بل جمعوها مع حروف المد الثلاثة [واى] ونسبوها جميعًا إلى هذا المخرج الذى تمر الهواء تارة والجوف تارة أخرى .

وبالنظر الدقيق فى جملة ما قاله هذا النفر بالنسبة لمخرج الهمزة يتضح أنهم مخطئون فى وضع الهمزة وفى تقدير موضع نطقها : فالهمزة ليست هوائية بالمعنى الذى أرادوا (وهو كون الهواء يخرج حرًّا طليقًا دون اعتراض حال النطق بها) . لأن الهواء — كما ذكرنا سابقًا — يقابل باعتراض تام فى منطقة الحنجرة : وذلك بانطباق الوترين الصوتيين وليس صحيحًا أيضًا وضع الهمزة مع حروف المد ؛ فهذه الأخيرة حركات طويلة ؛ على حين أن الهمزة صوت صامت . وهذه الحروف الثلاثة — دون الهمزة — هى التى يصح وصفها بأنها من الجوف أو بأنها هوائية .

ويمكن تعليل هذا الخطأ الذى وقع فيه الخليل ومن تابعه بأنه حين نطقها لمعرفة طبيعتها لم ينطقها وحدها . وإنما نطقها متلوة بحركة ، فبدت كما لو كان هواؤها حرًّا طليقًا ؛ على حين أن حرية الهواء إنما تنسب إلى الحركة المصاحبة للهمزة لا إلى الهمزة ذاتها . وهذا التعليل الذى نقدمه هنا ليس مجرد افتراض وهمى ، وإنما هو فى حقيقة الأمر يستند إلى طريقة الخليل نفسه فى ذوق الحروف .

فقد جرت عادة الخليل عند نطقه للحروف أن يفتح فاه بالألف (أى الهمزة) ثم يأتى بالحرف المراد نطقه ساكنًا هكذا: أب ، أت مثلا ، حين يريد نطق الباء أو التاء . ومعناه أنه فى حالة نطق الهمزة أتى بهمزتين : الأولى هى الهمزة التى يأتى بها مع أى حرف آخر ، والثانية الهمزة التى يريد نطقها لمعرفة خواصها . واجتماع همزتين متتاليتين ، والأولى منهما متحركة والثانية ساكنة — كما فى حالتنا هذه — أمر فيه ثقل ، ومن ثم يحولون الهمزتين همزة ممدودة [آ] . وهذه الهمزة الممدودة هى فى واقع الأمر مكونة من همزة + ألف أى فتحة طويلة .

فكان الخليل حين ذاق هذا المذاق أحس بحرية الهواء . وهذا صحيح ، لكن هذه الحرية منسوبة إلى الجزء الثانى الذى أصبح الآن ألفًا أى فتحة طويلة وهو حركة لا همزة .

والواقع أن قصة الهمزة عند الخليل مضطربة أشد اضطراب . إنه ينسبها إلى الهواء كما رأيت ويضعها مع حروف المد فى موضع واحد . ولا يبدأ بها أبجديته الصوتية . كما كان المفروض والمتوقع منه .

وقد حاول بعضهم أن يعتذر عن الخليل فى عدم بدء أبجديته بالهمزة كما كان الواجب . وكما تؤكد ذلك طبيعة الهمزة . يروون عن ابن كيسان أنه قال : سمعت من يقول : سئل الخليل لم بدأت بالعين ولم تبدأ بالهمزة ؟ فقال : «لم أبدأ بالهمزة لأنه يلحقها التقص والتغيير والحذف ولا بالألف لأنها لا تكون فى ابتداء كلمة ولا فى اسم ولا فعل إلا زائدة أو مبدلة . ولا بالهاء لأنها مهموسة خفية لا صوت لها . فنزلت إلى الحيز الثانى وفيه العين والحاء فوجدت العين أنصع الحرفين »[1] .

وهذا الاعتذار فى رأينا غير مقبول . ويبدو أنه موضوع لتبرئة الخليل من الخطأ . ودليلنا على ذلك أن الخليل عامل الهمزة معاملة حروف العلة ؛ ولم ينسبها إلى أى حيز محدد . كما أنه وضع الهاء فى حيز العين والحاء لا فى حيز هذين الصوتين . أضف إلى ذلك أن الخليل فى بعض أقواله ينسب الهمزة إلى أقصى الحلق ، فيقول : «وأما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق »[2] . وهذا كله دليل اضطراب الرجل فى إدراك طبيعة هذا الصوت وخواصه .

أما الرأى الثانى بالنسبة لموضع نطق الهمزة . فهو رأى غالبية اللغويين القدامى ومنهم سيبويه وابن جنى . قرر هؤلاء أن الهمزة تخرج من أقصى الحلق . وهو قول غير دقيق ، إذ الهمزة ليست من الحلق وإنما هى من الحنجرة وهى سابقة للحلق . ويمكن قبول رأيهم هذا بافتراض واحد . هو أنهم ربما أطلقوا الحلق على منطقة واسعة تشمل الحنجرة وغيرها ، وتكون الحنجرة حينئذ هى المقصودة « بأقصى الحلق » .

والملاحظ على كل حال أن هؤلاء العلماء المذكورين سابقًا لم يشيروا إلى الحنجرة فى كلامهم ، ولم يعدوها من مخارج الأصوات العربية[3] . وربما يرجع ذلك إلى عدم إدراكهم

---

(١) المزهر للسيوطى ، جـ ١ ص ٩٠ .

(٢) كتاب العين للخليل ، تحقيق د. عبدالله درويش ، جـ ١ ص ٥٨ .

(٣) انظر : مبحث « الهمزة » فى كتابنا « دراسات فى علم اللغة ، القسم الأول » ، حيث يتضح لنا هناك أن لابن سينا معرفة بالحنجرة ووظيفتها فى عملية النطق .

لهذه المنطقة المهمة فى تكوين الأصوات . فوقعوا فيما وقعوا فيه من خطأ عند وصف بعض الأصوات . ومن أهمها الهمزة . كما رأيت .

والنقطة الثانية : التى لم يوفق فيها العرب فى وصف الهمزة هى الحكم عليها بأنها مجهورة. كما قررنا سابقاً لا يمكن وصفها بالجهر . وربما أوقعهم فى هذا ما سبق أن ألمعنا إليه من أنهم — فيما نظن — كانوا ينطقونها متلوة بحركة . والحركة مجهورة — كما نعرف — فأثر جهر الحركة على نطق الهمزة فوصفوها هى الأخرى بالجهر خطأ .

على أنا نلاحظ أنهم بالرغم من وصفهم للهمزة بأنها صوت مجهور لم يذكروها ضمن حروف القلقلة ، وهى حروف — باتفاقهم جميعاً — مجهورة .

خلاصة كل ما تقدم فى هذا الفصل أن الأصوات الانفجارية (أو الوقفات) بحسب نطقنا العربية الفصحى المعاصرة ، هى : الهمزة — القاف — الكاف — التاء — الدال — الطاء — الضاد — الباء والجيم القاهرية هى الأخرى صوت انفجارى ، وهو النظير المجهور للكاف [g] .

وقد عرض العرب لمجموعة من الأصوات سموها الأصوات الشديدة ، وعرفوها تعريفاً يصعب فهمه ، ولكن أمثلة الأصوات الشديدة التى ذكروها تشير إلى أنهم يقصدون بالشديدة تلك الأصوات التى سميناها الانفجارية .

وهذه الأصوات الشديدة — كما سبق أن ذكرنا — مجموعة فى قولهم « أجدت طبقك » وهكذا نرى أن مواطن الاتفاق بيننا وبينهم أكثر من مواضع الخلاف ، إذ ينحصر الخلاف فى نقطتين .

١ — لم يذكروا الضاد ضمن الأصوات الشديدة ، على حين عددناها نحن انفجارية . وسلوكهم هذا بالنسبة للضاد يدل على أنها كانت تنطق فى القديم بصورة تخالف ما نعهده اليوم . وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك وأيدناه بأدلة من كلامهم كهذا النص الذى أورده سيبويه ، خاصاً بموضع نطق الضاد (وغيرها) : « لولا الإطباق لصارت الطاء دالاً والصاد سيناً والظاء ذالا ، ولخرجت الضاد من الكلام لأنه ليس من موضعها شىء غيرها » .

٢ — فى رأيهم أن الجيم صوت شديد (أى انفجارى) ، على حين أنه صوت من نوع

معين بحسب نطقنا الحاضر الفصحى إنه – كما سنعرف فيما بعد بشيء من التفصيل – صوت مركب أو صوت انفجاري – احتكاكي .

ولنا أن نفسر كلامهم بأن الجيم في القديم في الفصحى (أو في بعض اللهجات) كانت تنطق كما تنطق جيم القاهرة اليوم [g] بدلاً من [dj] . (انظر ص ١٢٥) .

وقد لاحظ علماء الأصوات العرب أن بعض الأصوات الشديدة (= الانفجارية) تشترك في خاصة أخرى مميزة . بالإضافة إلى الشدة أو الانفجار . هذه الخاصة هي أنك تتبعها « بصويت » أي بصوت خفيف قصير عند النطق بها ساكنة . وذلك – كما يقول ابن جني – « لأنك لا تستطيع الوقوف عليها إلا بصوت وذلك لشدة الحفز والضغط وذلك نحو الحقّ واذهبْ واخلطْ واخرجْ »[1] .

أما الأصوات التي تشترك في هذه الخاصة فهي – في رأيهم – كل صوت شديد مجهور وقد جمعوها في قولهم « قطب جد » . وقد سموها « حروف القلقلة » .

أما وجوب اتباع هذه الحروف بصويت أو بحركة خفيفة عندما تكون ساكنة فمرجعه إلى أن في هذا النطق تحقيقًا كاملاً لخواص هذه الحروف ، أي تحقيقًا للانفجار والجهر . فعدم وجود هذا الصويت ينشأ عنه تقليل صفتي الانفجار والجهر معًا . وتفسير ذلك أن نطق هذه الأصوات بالذات نطقًا كاملا واضحًا حالة السكون (وبخاصة في الوقوف) يستدعي جهداً كبيراً . وذلك لأن شدتها تعني أن الهواء عند نطقها محبوس حبسًا تامًا ولأن جهرها يعني عدم جريان النفس معها . ومن ثم وجب اتباعها بصويت أو حركة خفيفة فتنتقل هذه الحروف من السكون إلى شبه تحريك . فيتحقق نطقها كاملا بكل صفاتها من شدة وجهر .

أما تسمية هذه الأصوات بأصوات القلقلة ، فلأنها أصوات تحتاج إلى تحريك فكأن القلقلة جاءت من الفعل « قلقل » الشيء بمعنى حركه .

والقول بأن أصوات « قطب جد » كلها أصوات شديدة (= انفجارية) مجهورة يضطرنا إلى إبداء الملاحظات التالية .

١ – كون القاف صوتًا شيداً أي انفجاريًا قول سليم ، أما أنها مجهورة فهذا يخالف ما نعرفه عن القاف المعاصرة فهي مهموسة . والظاهر حينئذ أن المقصود بالقاف هنا هو صوت

---

(١) سر صناعة الإعراب لابن جني ، ج ١ ص ٧٣ .

الجاف [G] وهى تمثل قافًا قديمة حنكية – قصية مجهورة ولا يزال أثرها باقيًا فى نطق كثير من اللهجات العامية الحديثة ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك[١] .

٢ – وهذا الكلام ينطبق على الطاء . فهى حقًا صوت انفجارى ولكنها فى نطقنا الحاضر مهموسة لا مجهورة . فوصفهم لها بالجهر يعنى أنها كانت تنطق كما تنطق الضاد الحالية . وقد أشرنا إلى ذلك من قبل[٢] .

٣ – نصوا على أن الجيم من أصوات القلقلة . ومعنى ذلك أنها صوت شديد (= انفجارى) ولكن الجيم التى نعرفها الآن على ألسنة القراء هى صوت مركب أو شديد – رخو . أو بالتعبير الحديث ، الجيم الحالية فى الفصحى صوت انفجارى – احتكاكى . أما القول بأنها صوت انفجارى صرف فيعنى أنها تنطق كما تنطق الجيم القاهرية الآن [g] . ومن المحتمل أن يكون هذا النطق كان معروفًا فى القديم . أما قولهم بأن الجيم صوت مجهور فهو قول صحيح .

٤ – حروف القلقلة فى نظرهم تجمع كل الحروف الشديدة المجهورة . ولكنا مع ذلك نلاحظ أنهم لم يذكروا الهمزة ، بالرغم من أنها – فى نظرهم – صوت مجهور . ويعلل ابن الجزرى عدم ذكرهم لها ضمن حروف القلقلة بقوله : « وإنما لم يذكرها الجمهور لما يدخلها من التخفيف حالة السكون . ففارقت أخواتها ، ولما يعتريها من الإعلال »[٣] .

---

(١) انظر ص ١١١ .

(٢) انظر ص ١٠٣ .

(٣) ابن الجزرى : النشر فى القراءات العشر ، ج ١ ، ص ٢٠٣ .